دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	تحليل ظاهرة ما بعد الصهيونية
المصدر:	شؤون الأوسط
الناشر:	مركز الدراسات الاستراتيجية
المؤلف الرئيسي:	حداد، معين
المجلد/العدد:	ع72
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1998
الشهر:	مايو
الصفحات:	7 - 20
رقم MD:	639101
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EcoLink
مواضيع:	السياسة الإسرائيلية ، ما بعد الصهيونية ، علم الاجتماع السياسي ، استشراف المستقبل ، الإنتاج الفكري، الجيوبوليتيكا الإسرائيلية ، الصراع العربي الإسرائيلي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/639101

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

شؤون الأوسط 7

تحليل ظاهرة «ما بعد الصهيونية»

معين حداد *

يُبرز المشهد الثقافي السياسي الإسرائيلي بعد قرن من انطلاق الحركة الصهيونية وبعد نصف قرن على نشأة دولة إسرائيل، ظاهرة تدعوها الأوساط الإعلامية والأكاديمية «ما بعد الصهيونية». والتسمية هذه أطلقها أستاذ في علم الاجتماع هو أوري رام، وصارت قيد التداول منذ عام ١٩٩٣.

تشمل «ما بعد الصهيونية» مجموعة ذات توجهات سياسية فكرية متباينة، تمكنت على قلة عددها من إثارة الضجيج الاعلامي من حولها، كما تعرضت لردود فعل عنيفة ومكثفة في الوقت نفسه، خصوصاً بعدما أصبحت الجامعات والمعاهد الإسرائيلية مسرحاً لمناظراتها أو المناظرات التي تدور بينها وبين أخصامها. وقد راحت هذه المناظرات تثير فضولاً متنامياً خلال السنوات الأخيرة[١]. هذا ولم تلبث هذه الظاهرة أن تجاوزت الأوساط الأكاديمية إلى ميادين السينما والمسرح والشعر والغناء.

تبدو السمة المميزة لـ «ما بعد الصهيونية» رغبة مثقفين وفنانين في إعادة تقويم ما أنتجته الصهيونية من أحداث تاريخية والنظر في سلبياتها من جهة، وتحليل ونقد الوقائع الاجتماعية والسياسية الإسرائيلية كما صارت عليه في نهاية التسعينات. إلا أن نتاج هؤلاء المثقفين والفنانين ظل نخبوياً، كما أن الأثر السياسي المباشر المترتب على هذا النتاج بدا شبه معدوم، إن لم يكن معدوماً كلياً. على أن ما تنطوي عليه ظاهرة «ما بعد الصهيونية» في ذاتها من معان ودلالات، لا شأن له بمعدومية الأثر السياسي المباشر لها بقدر ما يعبر عن أواليات الانتقال بالمجتمع الإسرائيلي إلى حالة جديدة، ساهمت عوامل عدة متقاطعة ومتفاعلة في إرساء أسسها وصوغ أطرها.

(*) أستاذ في الجامعة اللبنانية، محاضر في جامعة باريس الرابعة، السوربون.

(١) في تموز / يوليو ١٩٩٤، جرت مناظرة حول «ما بعد الصهيونية» في جامعة تل أبيب، حضرها ما يزيد على ٧٠٠ شخص، وقد أثارت ردود فعل عنيفة عكستها الصحافة

الأفكار والأبعاد الأيديولوجية

تكمن أهمية النتاج الفكري والثقافي لـ «ما بعد الصهيونية» في كونه يندرج في السياقات المعبرة عن مفاعيل تعتمل في القاع الثقافي السياسي الإسرائيلي إزاء ما آلت إليه الأوضاع في منطقة الشرق الأوسط، ذلك أن هذه المفاعيل قد قذفت إلى سطح المجتمع الإسرائيلي بظواهر تراوح بين النقيض والنقيض: النقد المتمثل في «ما بعد الصهيونية» في طرف، والغلو الذي أدى إلى اغتيال اسحق رابين في الطرف المناظر، الأمر الذي يحمل على الاعتقاد بأن ما يجري داخل إسرائيل يبدو مساوقاً لما تشهده المنطقة من التناسب العكسي بين الحديث المستمر وغير المنقطع عن السلام ومشاريعه من جهة، وتفاقم الأزمات واستفحالها من جهة أخرى، خاصة بعدما وصلت الجيوبوليتيكا الإسرائيلية إلى أقصى حدودها [٢]، من دون أن تنفتح الآفاق الجغرافية السياسية عن تسوية تاريخية مرضية أو مقبولة من سائر أطراف النزاع.

ليس غريباً أن ينطوي مفهوم «ما بعد الصهيونية» على معانٍ عدة، منها ما يفيد أن الصهيونية قد انتهت، وأن إسرائيل صارت على عتبة ولوج مرحلة جديدة. ويمكن أن يعني مفهوم «ما بعد الصهيونية» غير ذلك؛ في الحالة الأولى تندرج نهاية الصهيونية في عداد «النهايات» التي تم أو يتم الإعلان عنها تباعاً وسط ضجيج إعلامي وأكاديمي لافت، مثل «نهاية التاريخ» أو «نهاية العقلانية» أو «نهاية الأيديولوجيا» (الجماعية والمنمطة) إلى ما هنالك من عناوين تتواءم مع نهاية القرن العشرين الموافقة لنهاية الألف الثاني الميلادي. أما في الحالات الأخرى، فإن «ما بعد الصهيونية» قد تعني أنها تقع «وراء الصهيونية» في تعاملها مع المسائل النظرية الخاصة بما «وراء التاريخ»، أي المسائل المترتبة عن الجدل الدائر حول الرواية التاريخية الصهيونية ليس لجهة صحة أحداثها، بل لجهة القيم التي حكمت هذه الرواية أو تعالت عليها. كما أن «ما بعد الصهيونية» في مناحيها المختلفة تشي بمضامين ومفاهيم تنتمي إلى ما صار يعرف بـ «ما بعد الحداثة» كما سنرى لاحقاً. لذلك فإن مفهوم «ما بعد الصهيونية» يبقى حاوياً لخليط من أفكار عامة ومتناقضة: جزء منها يبدو وكأنه يؤسس لصهيونية جديدة ومتجددة، وجزء آخر يوصف بأنه معاد للصهيونية مع ما يثيره من إدانة صاخبة في الأوساط الإعلامية والسياسية في إسرائيل.

إلا أن الأفكار الداعية إلى التجدد تعود جذورها إلى بداية الخمسينات عندما سنت

الإسرائيلية.

(٢) انظر معين حداد، الشرق الأوسط، قضايا الأرض والنفط والمياه، (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٩٧، طبعة ثانية).

(٣) وليد الخالدي، الصهيونية في مئة عام، من البكاء على الاطلال إلى الهيمنة على المشرق العربي (١٨٩٧ ـ ١٩٩٧) (بيروت :

السلطـة في عام ١٩٥٠ عـقب قيام دولـة إسرائيل «قانـون العودة» الـذي كرس حق كل يهودي في الهجرة إلى فلسطين عـملاً بالمبدأ الصـهيوني الأسـاسي القاضي بتجميع الشتات اليهودي في الأراضي المقدسـة. وما كان من بـن غوريون في حينه وهـو على رأس السلطة الـتنفيذيـة، إلا أن طالب «بحل المـنظمة الـصـهيونيـة بعد تـأسيس الـدولة (لأن) واجب اليهودي... أصبح بعد قيام إسرائيـل العودة إليها ليس إلا» [٣]، مما يعني وفق هذه الرؤية أن مهـمات الصـهيونية قـد اكتملت، وأن تجديد الـصـهيونية يقـضي بالعمل على نشر وعي جديـد في أوساط الشتات يدفع باليهودي إلى التـوجه نحو فلسطين من تلقاء نفسه. وعليه فإن إسرائيل لم تعد بحاجـة إلى الصـهيونية كما تأسسـت، لأن دولة إسرائيل تجسد حالة جديدة لها.

عاد بن غـوريون عن رأيه في حل «المنـظمة الصـهيـونية»، واستمـرت العلاقة بين إسرائيل والصـهيونية دون مراجـعة تذكر، وذلك حتى الثمانينات عندما قام أكاديميون [٤] صاروا يعرفون في التسعينات بأنصار «ما بعد الصـهيونية»، بأعمال بحثية ذات مقاربات أدت إلى صـوغ تصورات للماضي والحاضر في فلسطين، تناقض تلك التصورات التي كونها الجمهور الإسرائيـلي عن نفسه وعن علاقـاته مع محيطه، ممـا جعل الأمور تـبدو وكأن هـؤلاء الأكاديميين يقـومون بعملـية تحد للحقـائق والحقوق الصـهـيونية كـما طرحتها المؤسسات الرسمية، وبالتالي كما ألفها المجتمع الإسرائيلي.

قادت عملـية التحـدي هذه إلى إطلاق مـوجة من التـشكيك في صلاحيـة العقيدة الـصـهيونية بالنـسبة للجيل الجديد، وذلك بـعدما اعتمد مؤرخـون في مراجعتهم للوثائق والكتـابات المتعلقة بتـاريخ فلسطين المعاصر، قـراءة نقدية للصـهيـونية، تبعهم فريق من علماء الاجتماع والسياسة الجامعيين راحـوا يتعرضون وفق المنهج «التفكيكي» للأسس التي يقوم عليها المجتمع الإسرائيلي وما يعتريها من شوائب متنامية تمنعها من أن تكوПن مجتمعاً ديموقراطياً بالمعنى الصحيح.

ومع أن الكثير من الباحثين النقديين يصرحون بأنهم ما زالوا صـهيونيين ومؤيدين للصـهيونية، فـإن أعمالهم بدت كما يقول أحـدهم، وهو ايلان بابي «معاديـة للصـهيونية كأعمال أولئك الذين يعلنون صراحة أنهم معادون للصـهيونية» [٥].

تجـدر الإشارة هنا إلى أن هـؤلاء المثقفين الذيـن صاروا يعرفـون باسم «المثقفين الجدد» ليـسوا أول من تحـدى الروايـة الصـهـيونيـة لماضي إسرائـيل أو تحدى نـظرة

دار الـنهار لـلنشر، ١٩٩٨)، ص ٨٣.

(٤) مـنهم بـني مـوريـس ومـوشي سيـمش وسيـمحا فلابان وبار يوسف وأوري رام وسـامـي سمـوحـا وبـاروخ كيمـرلنغ وتـامار كـاتـريـال وسـارا كـازيـر وغيرشون شـافير ويارون ازراحـي وشلـومـو سويرسكـي وتوم سيغيف ويوناثـان شابيترو ويورين بن اليـعازر ويـاغيـل ليفي وايلا شوحـات وآفي شلايم وايلان باي وغيرهم.

(٥) ايلان بـابي : «مـا بعـد الصـهيونية» توجهات جديدة

الصهيونية لدولتهـا، لكن من سبقهم إلى ذلك كانوا إما قـلة قليلة من الإسرائيليين العرب، وهم على ما هم عليه مـن تهميش، وإما إسرائيليين يهود غـير مؤهلين أكاديمياً للاضطلاع بهذه المهمات، وإن كانت أسماؤهم ساطعة في دنيا البحث العلمي، كاسرائيل شاحاك وبني بيـت هالاحمي على سبيل المـثال، وكلاهما أستـاذ جامعي؛ الأول في الفيـزياء، والثاني في الكيمياء، مما جعل ما يدلون به من مداخلات في ميادين التاريخ والسياسة والاجتماع، أي خارج الاختصاصات التي برعوا فيها، يثير استخفاف الجمهور الإسرائيلي الذي استسهل وصف أعمالهما بأنها مجرد ادعاءات لناشطين سياسيين خرجوا عن الاجماع القومي.

لذلك جـاء نتاج المتخصصين في التاريخ والاجتماع والـسياسة أشد وقعاً من نتاج سابقيهم، خاصـة في الأوساط الأكاديمية، خصوصاً أنه قد مضى على حضورهم المستمر في الوعـي العام فترة من الزمـن تكفي لاعتبارهم ظـاهرة ثقافيـة مميزة في إسرائيل، علماً أنهم لا يشكلون كتلة متـجانسة في الفكر والممارسة السياسيين، حتى أن بعضـهم لا يتقبل تسمية أنصار «مـا بعد الصهيونيـة» عندما تطلق عليهـم. إلا أن شيوع هذا التعبير يلائم توصيف محتـوى ما يقومون به لجهة استخـدامهم خطاباً ثقافيـاً أو فنياً جديداً، وإن بدا متفاوتاً في حدته الانتقادية.

ممـا لا شك فيه أن محتوى «ما بعد الصهيونية» كما صار يعرف في الوقت الراهن، لم يتشكل دفعـة واحدة، إذ إنه عـرف خلال تشكله مـستويـات متراتبة بـدءاً من حرب ١٩٦٧، إذ رأى البعض مـنذ ذلك الحين، أن الصهـيونية قـد حققت أهدافهـا على الصعيد القومي بعدما تمكنت من جعل الشعب اليهودي شعباً عادياً له دولة ـ أمة مثلها مثل سائر الدول المنتظمة في العالم الجغرافي الـسياسي المعاصر. كما أنه لم يعد من الممكن «رمي دولة إسرائيل في البحـر» بعدما تمكن جـيشها من سحق الجـيوش العربيـة المجاورة على نحو مذهل. وعليـه فإن وضع إسرائيل قد استتب وترسخت مكانتها في المنطقة، وبالتالي فقد آن الأوان (منذ ذلك التاريخ) لاتخاذ تدابير تتجاوز المـفاهيم الصهيونية التقليدية وتؤدي إلى تحقـيق السلام مع المحيـط العربي. ثم أخـذت هذه الأفكـار مع محافظـتها على منحـاها الـسلمـي، اتجاهـاً احتجـاجيـاً غداة حـرب ١٩٧٣؛ ففي هـذه الحرب لاحـظ الشـبان الإسرائيليـون أن «الخوف» كمكـون أساسي للحركـة الصهيونـية، لم يعد يـطاول يهود الـشتات بقدر ما يصيبهم هم في إسرائيل، ذلك أن شباب الشتات قد تحرروا من الخوف في بلدانهم حيث يعيشون حياتهم على نحو طبيعي، إن لم يكن أفضل من أترابهم في إسرائيل،

وإذا كان من يهود يواجهـون كارثة جماعية، فهم (يهـود إسرائيل) وليس يهود الشتات. وحتـى لو كـانت دولة إسرائـيل قادرة على منع وقـوع هذه الكـارثة كما حـدث في حرب ١٩٧٣، فإن الـثمن يبقى مـرتفعاً جداً، وبـالتالي على الإسرائـيليين التفتيـش عن خيارات أخرى.

راح هـذا الاتجاه يتعـمق ويتحول بعـد حرب لبنـان سنة ١٩٨٢ ومـا تلاها من الأحداث والمواجهات مع المقاومة اللبنانية من جهة، والانتفاضة داخل الأراضي المحتلة من جهة أخرى. وما لبثت أن صارت التكاليف باهظة على مختلف المستويات، لاسيما البشرية منها، فبرزت إلى العلن مواقف انتقادية في العمق لمجريات الأمور، رافقتها طروحات سلبية تجـاه الصـهـيونيـة، عبرت عن خلخلـة في المجتمع الإسرائـيلي، فجاءت ظـاهرة «مـا بعد الصهيونية» مساوقـة لهذه الخلخلة، ومبنية على خلفية مـأزومية ناتجة من انسداد آفاق السلام في المنطقة.

البحث في التاريخ

بـدأ أنصار «مـا بعد الصـهـيونية» قـبل أن يُعرفوا بهـذا الاسم، مراجعـة الرواية الصهيونية للتاريـخ؛ كانت العملية التأريخية الأكاديـمية والرسمية في إسرائيل قد عمدت إلى إحلال نظـرة إلى الفلسطـينيين تتميـز بالرتـابة والتكـرار، فلم تأت على ذكـر السكان المحليـين أواخر الفترة العثـمانية إلا عرضـاً، وذلك بوصفهم عنـصراً هامشيـاً في المشهد الجغرافي لأرض خالية بائسة، إنما موعودة، وتنتظر من يخلصها. ثم تحول الفلسطينيون في الـرواية الـرسـمية الصـهـيونيـة ـ الإسرائيليـة إلى «لاجئين»، وبعـد سنة ١٩٦٧ إلى «إرهابيين» باعـتبارهم صاروا يشكلون تهـديداً جدياً للوجـود اليهودي، وقد باتوا رأس حربة لمؤامرة عربية واسعة تستهدف القضاء على دولة إسرائيل.

ولم يـعترف الخطاب الإسرائيلي الرسمي بوجـود جماعة فلسطينيـة قائمة بذاتها، لأن ذلك من شـأنه أن يـؤدي إلى الاعتراف بحقوق معينة لها، الأمر الذي يشرع النضال من قبلها لرفـع الظلم عنها، وهـذا يناقض الصـورة التي رسمتهـا الصـهيونيـة عن نفسها كضحية.

في الخـطـاب الأكـاديـمي الإسرائـيـلي حـــــول

أمـــا مـا يتعلق بحرب ١٩٤٨، فـــإن الرواية الإسرائـيلية ـ الصـهيـونية تعتبر أن الفلسطينيين قد خرجوا أو هربوا تلقـائياً بناء على دعوة من الملوك والرؤساء العرب حتى

يتسنى لجيوش هـؤلاء حرية الحركة في حربهم مع الصهيونيين دون أن يتعرض السكان العرب للأذى. وفي هذا يقول إيلان بابي إن هـذه الرواية هي «في وضع خطر شديد... فإذا كان الفلسطينيون قد ولوا مدبرين من دون أن يقاتلوا، فأين هي البطولة» [٦]؛ هذه البطولة الـتي ما انفك الخطاب الـرسمي ينسبهـا إلى أبناء إسرائيل، ثم يضـيف «وحتى لو لم تكن القصة المروية قصة بطـولة، فإنها تظل قصة مأسـاة... فكانت أفضل طريقة للتعامل مع هذه المعضلة أكاديمياً عدم التعرض للجانب الفلسطيني في الرواية» [٧].

والواقع أن التغيير البارز على المستوى الأكاديمي قد حدث في إسرائيل عندما حاول بعض المؤرخين الجـامعيين معالجة حـرب ١٩٤٨ كموضوع بحثـي، فإذا بهم يخرجون بنتائج مخـتلفة تمامـاً عن تلك التي روجـتها وتروجهـا الأنظمة التربـوية والثقـافية في إسرائيل، حتى أن بعض هذه النـتائج جاء متقارباً مع الروايـة الفلسطينية للأحداث التي رافقت نـشأة دولة إسرائيل، كما جاء بعضـها الآخر مناقضاً للادعاءات المبنية على الاعتبار القائل إن الجماعة اليهودية في فلسطين كانت عشية حرب ١٩٤٨ تواجه خطر الابادة.

إضافة إلى ذلك، أظهرت أعمال هـؤلاء المؤرخين عالماً عربـياً مفككاً يتكون من دول متـخلفة، بعض حكامها مـتواطىء مع الصهيونـية، وجيوشـها سيئـة التدريب، وقدراتها القتالية والعملانية شديدة التدني، مما ينزع صفة البطولة عن اليهود الذين قاتلوا لانشاء دولة إسرائيل. ومـا لبث أن راح فريق من هـؤلاء المؤرخين يـتحدى الروايـة الإسرائيلية المتعلقة بـالهجرة الجماعية لـلفلسطينيين، مـؤكداً أن هؤلاء قد أبعـدوا من طريق الطرد. ووصلت الأمور لدى بعض الأكاديميين إلى حد اعتبار إسرائيل دولة متعنتة مولعة بالقتال ولا ترغب في التـوصل إلى تسوية حقيقية مرضيـة، ولا في إعطاء السلام أي فرصة جدية، كما أنها لا تبدي أي مبادرة حسن نية تجاه جيرانها.

لقـد تمكن المؤرخون الجامعيـون من القيام بأعمالهم البحـثية إثر رفع السرية عن الأرشيف المتعلق بحرب سنـة ١٩٤٨، بعد مضي ثلاثين عاماً، وفـقاً للقانون المعمول به في كل من بريطانيا والولايات المتحدة وإسرائيل، أي أن انطلاق هذه الأبحاث الأكاديمية يعود إلى سنة ١٩٧٨، واستمر العـمل فيها أيضاً خلال حرب لبنـان في بداية الثمانينات وخلال الانتفاضة في الأراضي المحتلة. والحال أن هـذين الحدثين أوجدا فرزاً واضحاً في الأوساط المدنية والعسكرية على الـسواء، وذلك لأول مرة في تاريخ الدولة الحديثة النشأة، مما أدى إلى انقسـام في المـجتمع الإسرائـيلي، وإطلاق تيـار مـن المطـارحـات راحت تـدور بين

الإسرائيليين حـول مستقبل دولتهم ومصيرها والخيارات الواجب اعتمادها في تعاملها مع الفلسـطينيين ومع جيرانهـا. وما لبثت هـذه المطارحـات أن انتقلت إلى مسـتوى آخر من الحـوارات بين جامعيـين فلسطيـنيين وجامعـيين إسرائيليين، فنـظمت ندوات أكـاديمية وإعلامية واسعة بين الطرفين سمحت للجمهور العريض أن يقبل ولأول مرة، بأن يتعرف على آراء مغايرة للآراء التي ألفها، الأمر الذي شجع أنصار «ما بعد الصـهيونية» على المضي في التعرض للرواية الإسرائيلية الرسمية، وقد كشفوا فيها عن «فصول تعيسة وباعثة على الصدمـة أحيانـاً، (وتنبهـوا) في المقام الأول لـلتناقـض الأساسي بين المـطامح القـومية الـصـهيونية وبـين تحقيقها على حسـاب السكان المحلـيين... الذين قامـوا بدور حاسم في تذكير الجمهور بروايـة معاكسة سـاعدت في صوغ جـدول أعمال «ما بعد الصـهيونية» لـدى النخبة الأكاديمية الإسرائيلية» [٨].

كـان من شأن هـذه الحوارات التي جـرت داخل صفوف الإسرائيلـيين من جهة، وبينهم وبين الفلـسطينيين من جهـة أخرى، أن ساهمت في بلـورة حدود الجيوبـوليتيكا الصـهـيونية على المستوى الشعبي من جهة، وانتشـار المزيد من مفاهيم «ما بعد الحداثة»، مثل «الـنسبية» في الروايـات التاريخية ومـا ينتج منها من تقبل المـواقف المختلفة إزاءها، الأمر الذي جعل أفكار «ما بعد الـصـهيونية» على الرغم من غياب نفوذها السياسي المباشر، تتردد أصداؤها في الوعي العام.

عُرف المؤرخون الذين قاموا بتحدي الرواية الإسرائيلية بـ «المؤرخين الجدد». وقد أطلق عليهم صفـة «الجدد» واحد مـنهم هو بنـي موريس، مـؤلف كتاب ولادة مـشكلة اللاجئين ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨,

ولكن تجـدر الإشارة هنـا على المستـوى الأكاديمي، إلى أن «المـؤرخين الجدد» لم يتوسلوا في أبـحاثهم مناهج جديدة بالمعنـى الصحيح. ومن الواضح أن صفة «الجدد» قد استعيرت من عبارة «التاريخ الجديد» في أوروبا والعالم الغربي، أي التاريخ الذي يعتمد في التأليف على مـناهج مشتركـة لميادين مـعرفية مـتعددة، الهدف مـنها الاحاطـة بالإطار الاجتماعي العام وإحلال السلطات والنخب السياسية في سياقات لم تتبع المسار التاريخي للمجتمعات على هـذا الأساس. أما «المؤرخـون الجدد» في إسرائيل فقد عـالجوا المواضيع التاريخية على أنها مـواضيع سياسية تخص نخباً سياسية، من دون تبني مناهج التاريخ الجديد المعـمول بها في أوروبا والعـالم الغربي. لذلك فـإن ما قاموا به جـاء وكأنه عملية

(ترجمـة) مجلة الـدراسات الفلسطينية، عدد ٣١، صيف ١٩٩٧, ص ٧٩,

(٦) المصدر نفسه، ص ٨٢,

(٧) المصدر نفسه، ص ٩٢,

(٨) المصدر نفسه، ص ٨٣,

(٩) بقيـت «حركـة السلام الآن» نـاشطـة طـوال فترة الانـتفـاضـة في الأراضي المحـتلة، ثم اعتراهـا الصمت خلال فـترة حكـم رابـين، وعـادت مجدداً في مـواجهة حكـم نتنيـاهو، إنـما خارج إطار «ما بعد الصـهيونية».

«تصحيحية» لقراءة التاريخ وفق المنهج الكلاسيكي، دون أي إضافات لبيستمولوجيا التاريخ.

البحث في علم الاجتماع السياسي

مهد البحث التاريخي ذو المنحى الانتقادي في الثمانينات، الطريق أمام بروز امكانيات التعبير عن اتجاهات نقدية أخرى، مبنية على أعمال أكاديمية في حقلي السوسيولوجيا والسياسة. وراحت هذه الاتجاهات تستكمل تململاً خرج إلى العلن منذ حرب ١٩٧٣، ذلك أن هذه الحرب أدت إلى تصدعات أولية في بنية الاعتداد بالنفس والرضى الزائد عن الذات لدى الإسرائيليين. وقد تجسد هذا التململ في حركة «السلام الآن» التي أطلقتها مجموعة من ضباط الاحتياط سنة ١٩٧٧ ممن قادهم خوفهم من عدم استجابة مناحيم بيغن رئيس الوزراء آنذاك لعرض أنور السادات السلمي. وسرعان ما تمكنت هذه الحركة من تطوير نشاطها وتفعيل دورها السياسي. ففي سنة ١٩٨٢ قادت تظاهرات جماهيرية ضد غزو لبنان، كما تصدت للعمليات الاستيطانية التي حاولت مجموعة «غوش ايمونيم» المتطرفة الإقدام عليها، وما لبث دورها أن صار على درجة عالية من الأهمية. وبانتصار اسحق رابين في الانتخابات، و الذي تحول سنة ١٩٩٢ إلى «داعية سلام» وفق المعايير الإسرائيلية، تحولت أفكار كثيرة لحركة «السلام الآن» إلى جزء من السياسة الرسمية لدولة إسرائيل، الأمر الذي أدى إلى تلاشيها على المستوى التنظيمي[٩]، بينما راح أكاديميون من علماء اجتماع وسياسة يطورون مضامينها بناء على مقاربات علمية تناولت قضايا الفئات المحرومة، ومن بينهم الفلسطينيون. وجاءت أعمال هؤلاء الأكاديميين معبرة عن نقد أكثر جذرية من نقد «المؤرخين الجدد»، وذلك في إطار حالة احتجاجية واسعة طاولت مختلف المؤسسات الرسمية، بما فيها الجيش الذي صار هو الآخر عرضة للنقد، إذ «منذ نهاية ١٩٨٧ لم يعد من غير المألوف ظهور انتقادات أخلاقية وقانونية وسياسية لعمليات الجيش الإسرائيلي في الأراضي المحتلة»[١٠].

(١٠) عرض لكتاب يارون أزراحي، رصاصات المطاط، السلطة والضمير في إسرائيل الحديثة، التقديم والعرض لطارق الشمالي، النهار، بيروت ٩ آذار / مارس

انطلق السوسيولوجيون الإسرائيليون في دراساتهم الجديدة تحت تأثير التطورات الابستمولوجية للعلوم الانسانية التي عرفها العالم الغربي، حيث قام فيه باحثون بأعمال جاءت نتائجها بمثابة ثورة قلبت المقاييس السائدة المتعلقة بالمركزية الأوروبية أو الغربية، والمفاهيم الخاصة بهذه المركزية، مثل «التنوير» و«العقلانية» و«الحداثة» وغيرها

مما كان يُعتبر من المسلمات البديهية. لقد حطمت الثورة الابستمولوجية المركز الحضاري لصالح الثقافات «الهامشية» و«البدائية» الموجودة في الأطراف النائية والبعيدة عن المركز. وتعرض مفهوم «التقدم» للمراجعة والنقد، ولم يعد على ما كان عليه حين كان يعني أن العالم يتطور نحو الكمال وفق عملية أحادية الاتجاه، وأن المجتمعات تتراتب في سلم يعتليه العالم الغربي، بما هو نموذج واجب احتذاؤه. وعليه فقد أدى سقوط «المركز» إلى إعادة اعتبار «الآخر»، وبالتالي التعامل مع هذا الآخر على نحو إيجابي.

ولما كان الوسط الأكاديمي الإسرائيلي جزءاً لا يتجزأ من الوسط الأكاديمي الأوروبي والغربي، فقد برز من الإسرائيليين من راح يعمل في اتجاه تقويم ثقافة الآخر الذي هو هنا الفلسطيني أو العربي، الأمر الذي يؤدي إلى الحض على الأخذ بمبادىء التنوع والاختلاف والتجاور وسائر مكونات ما اصطلح على تسميته «ما بعد الحداثة».

صارت الدراسات الاجتماعية والسياسية تركز أيضاً على التعدد الثقافي في الواقع الإسرائيلي وفق منهج تفكيكي يهدف إلى الكشف عن الدور الذي اضطلعت به المؤسسات الرسمية في عملية بناء الأمة والدولة على حساب الحرية، بعدما عمدت هذه الدولة إلى تغييب كل ما من شأنه أن يؤدي إلى ما يشبه النقد الذاتي. وقد وصل بعض هذه الدراسات إلى حد الإقدام على تخصيص العسكريتاريا الإسرائيلية بالشروح المستفيضة التي تنفي عن الجيش صفته «الدفاعية»، وتجعل من إسرائيل دولة بعيدة كل البعد عن أن تكون مجرد عنصر غير مبادر في ما يجري من أحداث في المنطقة، ولم يعد عدم الاستقرار في الشرق الأوسط يُنسب إلى الرفض العربي فحسب، بل بات ينسب أيضاً إلى أعمال إسرائيل العدوانية تجاه محيطها.

وجد الباحثون الذين يدرسون هذه المواضيع أنفسهم مقربين من أكاديميين إسرائيليين عرب لم يجرأوا على التطرق إليها من قبل، نظراً للموقف المعادي لهم على وجه العموم، لكنهم، أي هؤلاء العرب، باتوا الآن يعملون جنباً إلى جنب مع أقرانهم الإسرائيليين في البحوث التي تستثيرها «ما بعد الصهاينة»، وصاروا على قلة عددهم [11] من الذين تؤخذ أعمالهم في الحسبان على نحو واسع في الدوائر الأكاديمية.

لكن المفارقة تكمن في أن المعارضة التي وجد أنصار «ما بعد الصهيونية» أنفسهم في مواجهتها، لم تأت من جانب اليمين الإسرائيلي بقدر ما جاءت من اليسار ذي الحضور الواسع في الوسط الأكاديمي؛ ففي حين «يوافق هذا اليسار على نقد إسرائيل ما بعد

١٩٩٨,

(١١) منهم عزمي بشارة وعزيز فيصل وأسعد غانم وماجد الحاج ونديم روحانا وخليل ريتاوي وأحمد

١٩٦٧، فإن فترة ١٨٢٢ ـ ١٩٦٧ تقع عنده خارج نطاق النقد، [١٢] فإن اليمين الذي لا يتوانى من وقت إلى آخر عن التعرض العنيف لأنصار «ما بعد الصهيونية»، يعتبر أن الظاهرة برمتها لا تعدو كونها ترفاً فكرياً أبعد من أن تكون فاعلية تذكر.

إلا أن بعض الآراء المستقلة في إسرائيل تذهب خلاف ذلك؛ منها ما عبرّ عنه اليعيزر شفيط أستاذ الفلسفة اليهودية في الجامعة العبرية في القدس على النحو التالي: «الظاهرة المركبة المعروفة باسم «ما بعد الصهيونية» (Post-Zionisme) معقدة جداً، ومكوناتها بالتأكيد غير متماثلة. ومن الأهمية بمكان أن تجلياتها الأيديولوجية هي نتاج حلقة صغيرة من أنصارها، ومع أن صوت هؤلاء الانصار مرتفع وكثيراً ما يبرز في المنشورات المطبوعة ووسائل الاعلام الالكترونية (inlernet)، إلا أنهم يعكسون آراء نخب ذات نفوذ ضئيل في المجتمع الإسرائيلي. لكن «ما بعد الصهيونية» هي أيضاً عملية اجتماعية وسوسيولوجية، لذلك فهي أوسع انتشاراً وأكثر نفوذاً مما نميل إلى الاعتراف به، إذ إنها تظهر في جوانب كثيرة من مواقف الحكومة والأحزاب السياسية»[١٣]، وبالفعل فهي تظهر أيضاً في مناحٍ أخرى من الحياة الاجتماعية في إسرائيل. فعلى سبيل المثال عرض التلفزيون الإسرائيلي في أوائل نيسان / أبريل ١٩٩٨ في مناسبة البدء بالاحتفالات الخمسينية لنشأة دولة إسرائيل، شريطاً مصوراً عن مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية أثناء نشاطهم عقب حرب ١٩٦٧، بدت فيه صورة هؤلاء المقاتلين بعيدة كل البعد عن صورة الارهابيين التي طالما تعاملت معها مخيلة الإسرائيليين. وقد أدى عرض الشريط إلى إثارة الغضب في أوساط واسعة من المجتمع الإسرائيلي وردود فعل عنيفة ضد إدارة التلفزيون التي سارعت إلى تبرير العرض على أنه محاولة لا بد منها للتعرف على «الآخر» كما هو، وليس كما يُراد له أن يكون.

لذلك يمكن القول إن «ما بعد الصهيونية» تبقى في التحليل الأخير على هذه الدرجة أو تلك من التفاعل مع محيطها الاجتماعي السياسي، على الرغم من تقوقعها في الوسط الأكاديمي، وبالتالي فإن العزلة التي هي عليها في الظاهر، لا تمنع من اعتبارها أحد المؤشرات المعبرة عن التحولات التي تصيب المجتمع الإسرائيلي والتشجنات المرافقة لها.

سعدي وآخرون.

(١٢) ايلان بابي، المصدر السابق، ص ٩٤.

(١٣) اليعازر شويد، «أهداف الصهيونية»، مقتطف منشور في مجلة الدراسات الفلسطينية، عدد

«ما بعد الصهيونية» خارج إسرائيل

تثير ظاهرة ما بعد الصهيونية خارج إسرائيل اهتمام الكثير من المثقفين في الشتات

اليهودي، وذلك لما تنطوي عليه من أبعـاد نظرية تتناول احتمالات الفصل بين الصـهيونية وإسرائيل تحت وطأة الأحداث وتطورها. فهي بهذا المعنى تضـع العلاقة الحميمة بين يهود الشتـات ودولة إسرائيـل على محك المراجعـة. وقد نـالت على هذا الأسـاس قسـطاً من المناقشـات رافقت المؤتمـر الصـهيوني الـذي انعقد في مـدينة بـال (سويسرا) ١٩٩٧ في مناسبة مئوية الحركة الصـهيونية.

ففي المحاضرة التي ألقاهـا رئيس الوكالة اليهـودية والمنظمة الصـهيـونية العالمية ابراهـام بورغ تحت عنوان «مئة عام من الصـهيـونية... نظرة إلى المستقبل»[١٤] تم الاقرار بـأن الصـهيونيـة تجتاز أزمة في غـاية الجدية، بـدأت منذ عام ١٩٧٥ عنـدما دانتها الأمم المـتحدة باعتبارها شـكلاً من أشكال العنصرية، الأمر الـذي جعل البعض من اليهود يعيد النظـر بصلاحية الحـركة الصـهيـونية، وإن على نحـو خجول. لكن تفـاقم الأوضـاع في الثمانينات عقب حرب لبنان وفي أثنـاء الانتفاضة في الأراضي المحتلة، وما صاحب ذلك من سلوكيات إسرائيـلية دفعت بالـعديد من المثقـفين إلى التساؤل عن مـدى التزام اليهودي بتأييد كل ما تقدم عليه السلطة في إسرائيل.

في هذا الإطـار جاء تعليق إحدى المشـاركات في المؤتمر المذكـور على أقوال ابراهام بورغ تحت عـنوان «الصـهيـونية أسـطورة تلفظ أنفـاسـها»[١٥]، أن الاستيـاء في الشتات اليهودي آخـذ في الاتسـاع، ومرد هذا الاسـتياء هو أداء السلطـة في إسرائيل وتعنتها الذي يقلل من فـرص الوصول إلى سلام في المنطقة. ولما كانت الصـهيونية العالمية قد درجت على تـأييد دولة إسرائيل من دون قيـد أو شرط، فإن دور هذه الصـهيونـية في تصويب الأمور صـار معدوماً، وعلـيه فإذا لم يتمكن الـيهود أو بعضـهم في العـالم، من التعبير عن رأيهم وتفعيله في ما يخص مستقبل إسرائيل، فإن الـصـهيونية تكون في حكم وجود من لا حاجة لوجوده. واستـطراداً، فإن الصـهيـونية مدعـوة إلى تجديد نفسـهـا حتى لا تفقد مبررات وجودهـا. لكن تجديـدها الآن صار منـوطاً باحلال الـسلام بين إسرائيل وجيرانها. وفي السياق ذاته يدلي أحد الوجوه البارزة في الحركة الصـهيونية السويسرية تيودور كوفمان، وهو طبيب مرموق في مدينة بال، بما معناه أنه يود أن يرى الأجيال الجديدة وقد تخلصت من عبء المحرقـة النازية بـما هو محدد لمواقـف يضطر الشبـان للأخذ بها دون مبررات مقنعة، ويستطرد معـرباً عن تمنياته في أن يتمكن الجمـيع من المجاهرة بآرائهم المتحررة من الماضي حتى نساهم جميعاً في دعم ما يدعوه البعض «ما بعد الصـهيونية» [١٦].

٣٣ شتـاء ١٩٩٨، بيروت ١٩٩٨,

(١٤) ذكرته فـرنشيـسكا أرجيفـورو في مقـالتها المنـشـورة في *L'hebdo*-

في الجانب العـربي لا تزال «ما بعد الصـهيونيـة» شبه مجهولة، ولذلك على ما يبدو أفردت لها مجلة دراسات فلسـطينية الصادرة شتاء ١٩٩٨ ملفـاً يحوي ترجمات لكتّاب إسرائيليين عالجوا هذه الظاهرة، إضافـة إلى مقتطفات من ندوة ضمت خصوماً ومؤيدين لها.

أعد الملف وقـدم له أحمد خليفة، مشيراً إلى أن «ما بعد الصـهيونية» تثير «الفضول، وأحياناً بعض الأوهام لدى أوساط فلـسطينية وعربية...»، ثم يضيف أن الجدل الدائر في إسرائيل بـشأن ما يسمى «مـا بعد الصـهيونيـة» يتناول «مسائـل مثل الهوية الإسرائيلية والمكونات الدينية والصـهيونية الداخلة في تكوينها... ونظراً إلى أهمية هذا الجدل، وضرورة إلمـام القارىء العـربي، قررت هيئـة تحريـر المجلة تخـصيص ملفهـا في هذا العـدد لهذا الموضوع... ويتكون الملف من ثلاثة عناصر: مقتطفـات في التعريف بالظاهرة... مقتطفات تمثل نموذجاً لبعض الموضوعات التي يتـناولها الجدل (و) ندوة شارك فيها خصوم «ما بعد الصـهيونية» وأنصارها في مناقشة.. للظاهرة»[١٧].

واللافت أن العدد المذكور من مجلة دراسات فلسطينية لم يتضمن أي تعليق سوى تلك الملاحظات المختصرة التي ساقها معدّه في مقدمته.

لكن التعليق الذي لا يخلو من الطرافـة قد جاء في ملحق النهار الصادر يوم السبت ١٤ آذار / مارس ١٩٩٨، وفيه يكتب رئيس التحـرير الياس خوري: «في الملف الذي أعده أحمـد خليفـة... نكتـشف حدود الـذاكرة الإسرائـيلية والـتباسـاتها.. فـالأكاديـميون الإسرائيليون الـذين لا تنقص بعـضهم النزاهـة، يقعون أسرى المـنطق الداخلي للـحركة الصـهيونيـة... بني موريس يـبحث عن تبرير للظـلم، وتوم سيغيف يتحـدث عن المعاناة الكبيرة... حـتى ايلان بابي الأكثـر جذرية في نقـده لا ينسى تبريـر الخطيئة... بـالنسبة للقارىء العربي، فإن هذا الجدل يبدو خارج كل سياقات تفكيره. ما معنى مناقشة خطيئة موسومـة على أجساد الفلسطينيـين؟ هل تحتاج الجريمة إلى برهـان، بينما جثة الضحية ماثلة أمامنا؟». ثم يضيف «القارىء العربي محق ومخطىء في آن واحد؛ محق لأن الحقائق البديهية لا تحتاج إلى براهين، ومخطىء لأن المهزوم لا يكتب التاريخ». أما جوهر الخطأ في رأي رئـيس تحريـر ملحق النهار، فـيتمثل في العلاقـة بين العرب والمحـرقة النـازية «في جريمتها الوحشية ضـد يهود أوروبا». وهنا ينهج الكاتب طريقة عجيبة في تحليله لحدود «ما بعد الصـهيـونية»، تفضي إلى تحميل العرب مـسؤولية عجز «ما بعـد الصـهيونية» عن

Magazine

تحت عنوان "Le Sionisme, le mythe qui s'essoufle"

(١٥) المصدر نفسه.

(١٦) المصدر نفسه.

(١٧) أحمـد خليـفة، مجـلة الدراسـات الفلسطينية، عدد ٣٣ شتاء ١٩٩٨، ص ٩١,

(١٨) اليـاس خوري، ملحق النهـار، ١٤ آذار / مـارس ١٩٩٨,

تخطي الصهيونية، لأنهم، أي العرب، مقصرون في مواقفهم الأخلاقية تجاه النازية. ويمضي الكاتب في شجب التقصير العربي متسائلاً «كيف يمكن العرب ألا يناقشوا وبعمق الجريمة النازية، علماً أن الحرب العالمية الثانية دارت جزئياً في بلادهم...»!![١٨]

على مستوى آخر وبأسلوب أقل إدعاء وأكثر جدية كان انعام رعد قد تطرق لظاهرة «ما بعد الصهيونية» في كتابه الصهيونية الشرق أوسطية، من هرتزل إلى بيريس إلى النفق والخطة المعاكسة الصادر في ١٩٩٧، معتبراً أنها جزء من محاولة الترويج لمرحلة جديدة تريد إسرائيل ولوجها، وهي «الشرق أوسطية»، فيقول «من الخطأ الجسيم والنظرة الجزئية للأمور توهم أن الشرق أوسطية التي نظر إليها شمعون بيريس وقاد مسارها اسحق رابين وبيريس، هي كما يتزاكى البعض، بوصفها Post-zionisme أي ما بعد الصهيونية... إن الشرق أوسطية أساساً مشروع صهيوني وليست ما بعد الصهيونية، وكيف يكون غير ذلك وهو يمد نفوذ الصهيونية الاقتصادي والسياسي على المنطقة العربية كلها»[١٩]. وعليه، فإن «ما بعد الصهيونية» لا يمكن أن تكون سوى صهيونية من نوع آخر، لأن مفاعيل الأولى تستكمل مفاعيل الثانية بأشكال مغايرة، ظاهرها دعوة إلى السلام، وجوهرها الامعان في العدوان.

(١٩) انعام رعد، الصهيونية الشرق أوسطية، من هرتزل إلى بيريز إلى النفق والخطة المعاكسة، (بيروت شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٩٧) ص ٣٤٠.

(٢٠) معين حداد، «السجال الجيوبولوجيكي في إسرائيل»، شؤون الأوسط، العدد ٥٧، تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩٦.

*****

يتبين من مجمل ما تقدم أن ظاهرة «ما بعد الصهيونية»، أياً كان الرأي فيها، تبقى من التعبيرات المختلفة والمتنوعة عن التحولات التي طرأت على إسرائيل مجتمعاً ودولة. فما لا شك فيه أن إسرائيل في منتصف القرن هي غيرها في نهايته. وعليه فالسؤال الملح يصبح: هل دخلت إسرائيل مرحلة جديدة ستضطر فيها إلى إعادة النظر في عقيدتها الصهيونية؟ وهل تكون المرحلة الآتية مرحلة «ما بعد الصهيونية»؟

إن المقارنة بين الجيوبوليتيكا الصهيونية والجيوبوليتيكا الإسرائيلية توحي بالجواب الايجابي؛ فالأولى تمحورت حول الاستيطان، أما الثانية، أي الإسرائيلية، فإنها تتمحور الآن حول الأمن. إن تطور العلاقة بين الاستيطان والأمن قد انتقل فعلاً إلى مرحلة جديدة[٢٠] بات فيها تغليب الأمن على الاستيطان أمراً لا مفر منه بالنسبة لإسرائيل. فالاستيطان بما هو عماد الصهيونية يواجه موانع ديموغرافية واقتصادية وسياسية متشعبة ومتداخلة لدرجة لا يتمكن معها أحد من استشراف مفاعيلها والأحداث المتوالدة عنها، الأمر الذي يجعل الدولة في حال أبقت على عقيدتها الصهيونية كما هي، عاجزة عن

وضـع اسـتراتيجية مسـتقبليـة، وهذا يتنافى مـع ما تدعيه في شـأن بنيتها السياسـية العصرية كدولة ديمـوقراطية وحيـدة في المنطقة، لأن الدول المـتقدمة هي الدول الـتي تتمتع بميزة استشرافها وتخطيطها للعقود الآتية. وهنا تكمن نقطة الضـعف في دولة إسرائيل على الرغم من تفوقها وقدراتها على الاسـتـئثار بجدولة أعمال مفاوضـات السـلام والامساك بزمام المبادرة حيالها، علماً أن إرساء السـلام وديمومته مرهونان بالكشـف عن مسـالك المسـتقبل والتيقن من آفاقها.

لا ندري إذا كان الذين فاوضـوا إسرائـيل من العرب واتفقوا معها أو الذين التزموا بمفاوضـتها، قد أخذوا نقطة الضـعف هذه في الحسبان